جامعة القاهرة
كلية دار العلوم
قسم الفلسفة الإسلامية
الدراسات العليا

الإرشادُ في الاعتِقادِ

لأبي الوفاء علي بن عقيل البغدادي الحنبلي
(٤٣١/٥١٣هـ)

دراسة وتحقيق

رسالة ماجستير في الفلسفة الإسلامية

مقدمة من الباحث
هشام محمد محمد غنيم

إشراف أ.د

عبد الفتاح أحمد الفاوي

أستاذ الفلسفة الإسلامية - كلية دار العلوم

١٤٢٩هـ -- ٢٠٠٨م

مقدمة

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه، ونستهديه ونستغفره، ونتوب إليه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، إنه من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه الطاهرين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد

فما من بناء إلا وله أصل وأساس يقوم عليه، وأصل بناء الإسلام وأساسه توحيد الله، الذي يشتمل على معرفة الله تعالى بأسمائه وصفاته، ومعرفة ما يجب له على عباده.

ومن المعلوم أن هذه المعرفة وهذا التوحيد لا يتحققان إلا عن طريق ما أنزله الله في كتابه، أو ما شرعه على لسان نبيه محمد ﷺ؛ إذ إن هذا هو السبيل الوحيد إلى ذلك؛ فالله سبحانه وتعالى قد أتم لهذه الأمة أمر دينها وأكمله، قال تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينا﴾[1].

ولقد كان لجانب توحيد الله الحظ الأوفر، والنصيب الأعظم، من ذلك البيان والإيضاح الذي جاءت به آيات القرآن ونصوص السنة المتواترة، ولقد عرف السلف من الصحابة والتابعين ومن سار على نهجهم ذلك المنهج الذي يعرف به توحيد الله حق المعرفة؛ فطبقوه أتم التطبيق؛ فلذلك كان الكتاب والسنة هما المنبع الوحيد الذي يستمدون منه ما يجب عليهم تجاه خالقهم ﷻ.

ولقد صنف كثير من السلف -خاصة في القرنين الرابع والخامس الهجريين- مؤلفات ورسائل كثيرة في مسائل العقيدة؛ فبينوا فيها ما يجب على المسلم تجاه هذا الأمر العظيم، وقد اعتمدوا في تصانيفهم تلك على نصوص القرآن والسنة، ولقد عرف علماء المسلمين قديمًا تحقيق النصوص[2]، ولابدَّ من الإشارة إلى أن إخراج هذه المصنفات وتحقيقها أمر بالغ الأهمية.

---

(١) سورة المائدة: ٣.

(٢) تدريب الراوي للسيوطي، تحقيق عبد الوهاب عبد اللطيف، ط دار الكتب العلمية ١٩٧٩، ١/١٤.

ولقد وقع اختياري على "كتاب الإرشاد في الاعتقاد لابن عقيل الحنبلي" لكي يكون هو موضوع بحثي في مرحلة الماجستير، ومن أهم الأسباب والدوافع التي جعلتني أقدم على تحقيق هذا الكتاب ما يلي:

أولاً: أن هذا المخطوط قد صنف في القرن الخامس الهجري وقت نضج الدراسات الكلامية وثراء المعارك الفكرية.

ثانيًا: أن المصنّف شخصية علمية بارزة في الأوساط العلمية، كما أن الدراسات السابقة عنه اهتمت به كفقيه[٣]، ومن ثم فقد كان من المهام العلمية المرغوب فيها دراسته دراسة تجلو جوانب حياته ونشاطه العلمي، وترسم منهجه وطريقه الفكري، وتعرّف بآرائه وخوضه في المسائل الكلامية المختلفة، ولا سيما أنه حنبلي وله تأثير واضح في دخول المنهج الكلامي إلى المدرسة الحنبلية.

ثالثًا: طرح المصنف بعض الأفكار العلمية في عصره من خلال عرضه للقضايا الكلامية التي دفعتني إلى البحث والتنقيب في ضوء النهضة العلمية المعاصرة، وما نتج عنها من تغير بعض المفاهيم والآراء العلمية[٤].

رابعًا: ما حواه المخطوط من مادة علمية غزيرة؛ حيث يحتوي على أغلب قضايا العقيدة مشفوعة بآراء المتكلمين، وردود المصنف على مخالفيه، وهي مادة تثري الفكر الكلامي.

خامسًا: رغبتي الشخصية في الاشتغال بتحقيق المخطوطات من تراث سلفنا الصالح، خاصة في مجال العقيدة.

أهداف البحث:

يحاول البحث تحقيق مجموعة من الأهداف وهي:

١- نشر هذا النص نشرًا علميًا، وتوثيق مصادر مادته حتى يخرج على أقرب وجه أراده مؤلفه.

---

(٣) توجد رسالة دكتوراه بعنوان " ابن عقيل حياته واختياراته الفقهية " د صالح المحمد الرشيد ، كلية الشريعة ١٩٨٦، بجامعة الأزهر.

(٤) نحو كلامه عن تعريف الرؤية وانعكاس الشعاع، وربطه بجواز الرؤية انظر ١٠٢، ١٠١.

٢- إبراز قيمة المخطوط العلمية؛ ليفيد منه الباحثون في مجال علم الكلام؛ فهو حلقة من حلقات الدرس الكلامي المتواصل، لا سيما في المدرسة الحنبلية.

٣- إبراز آراء ابن عقيل الكلامية.

صعوبات الموضوع:

قد عانيت في سبيل إتمام هذا الموضوع صعوبات كثيرة من أهمها:

أولاً: عدم وجود نسخ أخرى لهذا المخطوط؛ وهو ما أدى إلى تكبد المعاناة والمشقة في عملية نسخ.

ثانيًا: احتمال صعوبات التحقيق من الطمس والمحو وسوء الخط، وغير ذلك.

ثالثًا: كما تمثلت صعوبة البحث أيضًا في مرحلة توثيق النقول وعزوها إلى أصحابها، وأردت أن أبرز منهجه النقدي الموضوعي المقارن؛ فكان لابد من الاطمئنان إلى الأمانة العلمية والدقة في نقل هذه النصوص عن أصحابها، ما أكد أمانة المصنف العلمية، وموسوعيته.

منهج الدراسة:

يحتوي المخطوط على أغلب قضايا العقيدة، وقد تناولت بعض هذه القضايا التي تحتاج إلى مناقشة، ثم مقارنتها مع علماء آخرين، وإبراز أوجه التشابه والخلاف بين الأفكار، كما لم يخلُ البحث من المنهج النقدي حسب الضرورة.

ومن خلال هذه المناهج حرصت كل الحرص على إبراز رأي المؤلف في مختلف القضايا، والتنبيه على أوجه التأثير والتأثر بينه وبين غيره.

خطة الدراسة:

اقتضت طبيعة الموضوع تقسيمه إلى مقدمة وقسمين وخاتمة:

فالمقدمة تناولت فيها أهمية الموضوع، وسبب اختياره، ومنهج الدراسة، وخطة البحث.

وجاء القسمان الأول: **قسم الدراسة، والآخر قسم التحقيق.**

وقد جاء قسم الدراسة في أربعة فصول على النحو التالي:

فخصص الفصل الأول للحديث عن الأحوال السياسية والدينية والثقافية لعصر المصنف.

أما الفصل الثاني: ترجمة المصنف، وتناولت فيها: نسبه ومولده وحياته وشيوخه ومصادر ثقافته ومصنفاته وتلاميذه..إلخ.

الفصل الثالث: منهجه في الاستدلال

وتناولت فيه بعد تمهيد عن موقف المدرسة الخلدية من علم الكلام، وموقف المصنف من النظر العقلي، ومنهجه في البحث والاستدلال، وبعض المسائل المهمة.

الفصل الرابع: خُصص لعرض بعض قضايا المخطوط؛ فتناولت بعض الموضوعات التي يدور حولها جدل.

أما قسم التحقيق فقد اتبعت فيه الأصول العلمية المعروفة في تحقيق النصوص.

وجاء في مقدمة تناولت فيها النقاط الآتية: التعريف بالمخطوط ونسبته إلى المصنف، وسبب تأليفه، ووصف المخطوط، وصعوبات التحقيق، وطريقتي في التحقيق.

ثم النص المحقق.

والأفكار الرئيسية التي جاءت في المخطوط هي:

١ - المقدمات التقليدية: ذكر فيها تسمية علم الكلام وحكم تعلمه ورأيه كذلك عن حد العلم وذكر أضداده وأقسامه، وأسهب الحديث عن حدوث العالم وأدلة وجود الله.

٢ - الحديث عن النِّحل: أخذ يناقش ويحلل ويرد على أقوال الثنوية والسالمية.

٣ - حديثه عن الإلهيات: فقد تكلم عن الصفات الإلهية وأفعال العباد وغيرها من المسائل التي لها صلة بالإلهيات.

٤ - كما أثبت نبوة سيدنا محمد ﷺ، ورد على منكري النبوات.

٥ - وكذلك تحدث عن السمعيات وما يتعلق بها من الجنة والنار والملائكة وعذاب القبر والمعجزة..إلخ.

٦ - وقد ختم بالحديث عن مبحث الإمامة، ثم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وأخيرًا، فلقد بذلت قصارى جهدي في هذا العمل، وعسى أن أكون قد وفقت إلى ما قصدته ؛ فإن كان هذا فهو توفيق الله وعونه، وإن كان هناك بعض الهنات أو القصور فأستميح أساتذتي الأفاضل عذرًا؛ فهذه سمة البدء والبادئين.

وفي الختام أتوجه بالشكر إلى الله تعالى الذي سهل لي أمر إعداد هذه الرسالة بفضل منه وتوفيق، وأسأله ﷻ أن يجعل هذا العمل خالصًا لوجهه الكريم، وأن ينفعنا بما علمنا، إنه على كل شيء قدير.

وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب.

القسم الأول: الدراسة

الفصل الأول: عصر المصنف

الفصل الثاني: ترجمة المصنف

الفصل الثالث: منهج المصنف في البحث والاستدلال

الفصل الرابع: قضايا المخطوط

الفصل الأول: عصر المصنف

(٤٣١-٥١٣هـ)

المبحث الأول : الحالة السياسية.

المبحث الثاني:الحالة الدينية.

المبحث الثالث : الحالة الثقافية.

المبحث الأول: الحالة السياسية

ترتبط حياة العلماء ارتباطًا شديدًا بالبيئة التي يعيشون فيها، وكذا تؤثر فيهم ظروف مجتمعاتهم؛ فتظهر فيهم أفكار جديدة ومعالجات لها ارتباط بما يقع من حولهم، بحيث يمكن القول بأنه لا يمكن دراسة سيرة أي شخص بمعزل عن المؤثرات المختلفة للعصر الذي ينتمي إليه، ومن ثَمَّ لابد من الإحاطة بالظروف المحيطة بشخصيته لندرك علاقة التأثير والتأثر.

ومصنفنا عاش أكثر من نصف القرن الخامس الهجري وأوائل القرن السادس (٤٣١ـــ ٥١٣هـ)، وفي تلك الآونة كان الأتراك أصحاب النفوذ الحقيقي؛ حيث تمكنوا من سلب سلطة الخلفاء وتحكموا في توليتهم وعزلهم[1]؛ الأمر الذي أدى إلى توجه السلاجقة[2] شطر هذه الخلافة المتداعية، والسلاجقة في أصلهم مجموعة من القبائل التركية التي دفعتها ظروفها السياسية والاقتصادية إلى كثرة التنقل، بحثًا عن أسباب العيش الرغيد، إلى أن انتهى بهم الأمر إلى القضاء على نفوذ البويهيين، والسيطرة على مقاليد الحكم في بغداد سنة ٤٤٧هـ، حيث اعترف الخليفة العباسي بسلطانهم، ولكن سلاطين السلاجقة لم يتخذوا من بغداد مقرًّا لهم؛ بل اكتفوا بإرسال نائب عنهم يلقب بـ"العميد" ليشرف على العراق بأجمعه، وآخر يلقب "بالشِّحنة" يضطلع بالإشراف على بغداد، والبصرة، والكوفة، وغيرهما. أضف إلى ذلك أن الخلفاء العباسيين كانوا رموزًا دينية، وكان عليهم أن يرضخوا ويذعنوا لأوامر سلاطين السلاجقة الحكام الفعليين للبلاد، ويعد السلاجقة من أفضل سلاطين المسلمين، وأفضلهم معاملة للخلفاء العباسين ولا سيما سلاطين بني بويه الذين سيطروا على مقاليد الحكم في العراق من ٣٣٤ - ٤٤٧ هـ، وهم شيعة على المذهب الزيدي، وكان تشيعهم

---

(١) انظر: سلاجقة إيران والعراق: د. عبد النعيم حسنين، ص ١٣ ــ ١٤، وللتوسع عن العصر العباسي، انظر: العالم الإسلامي في العصر العباسي د. حسن أحمد محمود، ود. أحمد إبراهيم الشريف و الخلافة والدولة في العصر العباسي: د. محمد حلمي أحمد. والسلاجقة تاريخهم السياسي والعسكري، د محمد عبد العظيم أبو النصر، ط عين للدراسات ٢٠٠٣، ٩١،٩٠.

(٢) دولة السلاجقة: ممن ينتسبون إلى طائفة من الأتراك، أو التركمان، وينسبون إلى جدهم سلجوق بن تقاق وللتوسع بشأن هذه الدولة انظر: الكامل في التاريخ لابن الأثير، دار الفكر، بيروت ط ١٩٧٨، ٨ / ٢٣٦ وما بعدها، و سلاجقة إيران والعراق و الخلافة والدولة في العصر العباسي ص ١٧٥، ١٧٦، ١٧٨ ــ ١٨٣، و الخلافة العباسية والحركات الاستقلالية بالمشرق د. محمد عبد الحميد الرفاعي، ص ١٠٣ ــ ١٠٥، و السلاجقة في التاريخ والحضارة د. أحمد كمال حلمي، و موسوعة التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية د. أحمد شلبي، مكتبة النهضة المصرية، ٣ / ٤٣٤، وما بعدها.

سببًا من أسباب عدم احترامهم للخلافة العباسية، مما أدى إلى نشوب خلافات وفتن، ومصادمات كثيرة بين الشيعة الذين يحتمون بالنظام البويهي، وأهل السنة.

وقد حرص كل من الغزنويين والبويهيين على مقاسمة السلاجقة ضعف الخلافة العباسية، ولكن السلطان السلجوقي طغرل بك تمكن من مواجهة الغزنويين عندما دخل نيسابور سنة ٤٢٩هـ، وجلس على عرش السلطان مسعود الغزنوي، وأعلن قيام دولة السلاجقة، وتمكن أيضًا من دخول عاصمتهم غزنة[1]، وتعد هذه السنة بداية قيام الدولة السلجوقية، وقد استطاع هذا القائد أن يسدل الستار على الدولة البويهية التي جثمت على صدر الخلافة العباسية، وحكمت باسمها ١١٣ سنة.

الأمر الذي جعل الخليفة العباسي يعترف بطغرل بك سلطانًا[2] على جميع المناطق التي تحت يديه، وقد بلغت الخلافة العباسية في هذا الوقت حدًا من الضعف لم تبلغ مثله من قبل، وكان طغرل بك قد عهد قبل وفاته عام ٤٥٥هـ بالسلطنة من بعده لابن أخيه ألب أرسلان؛ لأنه لم يكن له ولد؛ وهو ما أدى إلى وقوع ألب أرسلان في أحقاد أقاربه من البيت السلجوقي، ولكنه تمكن من تقليم أظافرهم وتأديبهم واستتب الأمر له دون منازع، ودام حكمه تسعة أعوام ونصف تقريبًا، نشر فيها العدل، واحتفى بأهل السنة، وعهد بالسلطنة من بعده لابنه "ملكشاه"[3]، الذي تولى عام ٤٦٦هـ، وتمكن من بسط نفوذ دولة السلاجقة على أنحاء كثيرة من العالم الإسلامي، وكان لملكشاه اعتناء كبير بأحوال البلاد، ولا أدلّ على ذلك من أنه أمر بعمل الرصد الفلكي بعد أن جمع جماعة من كبار علماء الفلك والتنجيم كالخيامي[4]، والواسطي[5]، ومنحهم من الأموال الكثير، وبقي الرصد دائرًا إلى أن مات، كما أسقط ملكشاه المكوس من جميع البلاد، ومهد الطرق، وأقام القناطر، وحفر الأنهار، وشيد المصانع، واعتلى عرش البلاد من بعده ابنه بركياروق، ويعتبر

---

(١) انظر: سلاجقة إيران والعراق ص ٩ ــ ١٣، و الكامل في التاريخ ٨ / ٤٣١ ــ ٤٣٨.

(٢) طغرل بك (٣٨٥ - ٤٥٥ هـ) محمد بن ميكائيل بن سلجوق، أبو طالب، الملقب ركن الدين طغرل بك: أول ملوك الدولة السلجوقية. انظر الأعلام لخير الدين الزركلي ط دار العلم للملايين، ٧/١٢٠.

(٣) انظر: الكامل في التاريخ ٨ / ٣٣٢، ٣٤١ ــ ٣٤٧، ٣٦٢ ــ ٣٦٥، ٣٧٢ ــ ٣٧٥، ٣٩٢.

(٤) عمر بن إبراهيم الخيامي النيسابوري ت ٥١٥هـ بلغت شهرة الخيام ذروتها بمقطعاته الشعرية " الرباعيات وكان أحد المحسنين الذين عملوا " لرصد " للسلطان ملكشاه السلجوقي سنة ٤٦٧ هـ.انظر الأعلام ٤/ ٢٤٧وأخبار العلماء والحكماء للقفطي. ط مكتبة المتنبي ١٦٢.

(٥) علي بن أحمد بن أبو الحسن الواسطي المنجم، رحل إلى بغداد وتوفي بها ٦١٢هـ. انظر أخبار العلماء ١٦٠.

عهده وسطًا بين عصرين: عصر وحدة السلاجقة، وعصر انقسامهم، وقد كان عهده عهد اضطراب وحروب وصراعات بين أفراد البيت السلجوقي؛ مما أدى إلى انتشار الفساد، والاضطراب في كيان الدولة، والقضاء على وحدة السلاجقة للأبد[1].

وكان لابن عقيل مكان بارز عند ملكشاه؛ ويظهر ،حيث ناصحه لما أفسدت الباطنية عقيدته، وأنبه بكلام شديد، بل وكانت له صلة ببيت الخلافة، ولم يكن غائبًا عن الحياة السياسة، حيث كانوا يجلونه ويحترمونه؛ فلقد طلب الخليفة المستظهر بيعته بنفسه، ولما مات المستظهر غسله ابن عقيل بنفسه[2].

أما عن الأحوال بين السلاجقة والخلافة العباسية؛ فقد بدأت طيبة في هذا العصر، وزادها قوة المصاهرات التي تمت بينها، لكن هذه العلاقات شابتها الأكدار، وكانت الخلافة تتربص وتتحين الفرص لإعادة قوتها وفعاليتها؛ ففي سنة ٤٧٤هـ تم تبادل الزواج بين السلطان السلجوقي ملكشاه والخليفة المقتدى بأمر الله، وعقد السلطان طغرل بك سنة ٤٥٤هـ، على ابنة الخليفة القائم بأمر الله، وكان بينهما تبادل مصالح[3].

---

(١) انظر: المصدر السابق ٨ / ٤٠٣ ــ ٤٠٩، ٤١٨، ٤٥٧ ــ ٤٦٠، ٤٨٣ ــ ٤٨٥، ٤٩٥ ــ ٤٩٧ وموسوعة التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية ٣ / ٤٣٥، ٤٣٦.

(٢) تاريخ الخلفاء، للسيوطي، ط دار الكتب العلمية،(١/ ٤٣٠).

(٣) انظر: موسوعة التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية ٣ / ٤٣٧ ــ ٤٤٢ وما بعدها.

المبحث الثاني: الحالة الدينية

نظرًا لاضطرابات الأحوال السياسية وتداعي السلطة السلجوقية وعجزها عن القضاء على الصراعات الداخلية، ورغبة كل فرد من البيت السلجوقي في الوصول إلى كرسي السلطنة؛ فقد كان هذا الجو مناخًا مناسبًا لظهور مذاهب، واتجاهات حادت عن طريق أهل السنة والجماعة، فنجد دعاة الإسماعيلية[1] يتحركون خلال هذه الفترات.

وقد كان تعصب السلاجقة للإسلام وميلهم إلى أهل السنة بادئ أمرهم سببًا في القضاء على المذهب الشيعي، ودعاية بني بويه له؛ فعقب دخول طغرل بك بغداد سنة ٤٤٧ هـ تمكن من استئصال شأفتهم، خاصة عندما ظهر الحسن الصباح يدعو للإسماعيلية، واستولى على قلعة "ألموت"، للتحصن بها هو واتباعه، وأصبحوا خطرًا شديدًا على السلطنة السلجوقية باستخدام أسلوب الغدر والاغتيال، وتمكنوا من قتل الوزير نظام الملك على يدي صبي ديلمي من الباطنية، واتبعوا هذا الأسلوب في القضاء على بعض رجالات الدولة السلجوقية[2].

وكان وزير السلطان طغرل بك شديد التعصب على الشافعية كثير الوقوع في الشافعي - رحمه الله - بلغ من تعصبه أنه خاطب السلطان في لعن الرافضة على منابر خراسان، وأضاف إليهم الأشعرية فأنف من ذلك أئمة خراسان ومنهم: الإمام أبو القاسم القشيري، والإمام أبو المعالي الجويني وغيرهما، ففارقوا خراسان؛ فلما جاءت الدولة النظامية أحضر من التزح منهم وأكرمهم وأحسن إليهم.

كما وقع اضطهاد على الأشاعرة من قبل الحنابلة، فعندما ورد بغداد أبو القاسم القشيري، جلس يعظ الناس في المدرسة النظامية، وحدثت فتن كثيرة بين الحنابلة والأشاعرة؛ لأن المتكلم على مذهب الأشعري ونصره وكثر أتباعه، فقصد خصومه من الحنابلة ومن تبعهم أسواق المدرسة النظامية، وقتلوا منهم جماعة[3]، وهكذا فقد كان عصر المصنف عصرًا اتسم بالتعصب، والصراع بين المذاهب العقدية.

---

(١) الإسماعيلية فرقة باطنية، انتسبت إلى الإمام إسماعيل بن جعفر الصادق، ظاهرها التشيع لآل البيت، وحقيقتها هدم عقائد الإسلام، تشعبت فرقها وامتدت في الزمان حتى وقتنا الحاضر، وحقيقتها تخالف العقائد الإسلامية الصحيحة، انظر الفرق بين الفرق لسان الفرقة الناجية، عبد القاهر بن طاهر بن محمد البغدادي أبو منصور، ط دار الآفاق الجديدة - بيروت، ١٧و ٤٧.

(٢) انظر: الخلافة والدولة في العصر العباسي ص ١٨٣، ١٨٤ و الكامل في التاريخ ٨/ ٤٧٨ - ٤٧٩.

(٣) انظر: الكامل ٨/ ٣٦٥، ٤١٣، ٤٢٨، ٥٠٦.

وكان هناك سجال بين الحنابلة والنظامية، وكان للحنابلة قوة؛ ففي سنة ٤٥٨هـ تخلت الدولة عن الجهر بالبسملة في الصلاة، وهذه كانت عقيدة الحنابلة. لكن أحد مصادر الشافعية قال: إن ذلك لم يكن «اتباعًا لمذهب الإمام (ابن حنبل)، بل مخالفة للعلويين الفاطميين بمصر؛ لأنهم كانوا يجهرون بالبسملة».

وفي ٤٧٠هـ كتب نظام المُلك إلى عميد المدرسة أبي إسحاق الشيرازي بخصوص التعامل مع الحنابلة. وفي سنة ٤٨٤هـ زار الوزير بغداد، وفي ذلك قال أبو الوفاء ابن عقيل الحنبلي تعقيباً على سؤال الوزير حول مذهب الحنابلة: «فأحببت أن أسوغ كلاماً يجوز أن يُقال إذا سئلت. فقلت: ينبغي لهؤلاء الجماعة يسألون صاحبنا (ابن حنبل)، فإذا أجمعوا على حفظه لأحبار رسول الله ﷺ، وسلموا أنه كان ثقة؛ فالشريعة ليست بأكثر من أقوال الرسول وأفعاله، إلا ما كان للرأي فيه مدخل من الحوادث الفقهية. فنحن على مذهب ذلك الرجل الذي أجمعوا على تعديله، كما أنهم (الشافعية) على مذهب قوم أجمعنا على سلامتهم من البدعة.. وإن قالوا: أحمد ما شبه (تشبيه الله بمخلوقاته) وأنتم شبهتم، قلنا: الشافعي لم يكن أشعرياً، وأنتم أشعرية، فإن كان مكذوباً عليكم فقد كذب علينا، ونحن نفزع في التأويل مع نفي التشبيه، فلا يعاب علينا إلا ترك الخوض والبحث، وليس بطريقة السلف، ثم ما يريد الطاعنون علينا ونحن لا نزاحمهم على طلب الدنيا».

ويشار إلى أن تدخل الحنابلة في حياة الناس الاجتماعية كمطاوعة (جماعة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر)، مثال ذلك (٤٦٤هـ) «لقي أبو سعد بن أبي عمامة -مفتي الحنابلة في زمانه- مغنية خرجت من عند تركي، فقبض على عودها وقطع أوتاره، فعادت فأخبرته فبعث التركي إليه من كبس داره، وأفلت، وعبر إلى الحريم شاكياً ما لقي، واجتمع الحنابلة في جامع القصر من الغد، فأقاموا فيه مستغيثين، ودخلوا ومعهم الشيخ إسحاق الشيرازي وأصحابه، وطلبوا قلع المواخير، وتتبع المفسدات، ومن يبيع النبيذ، وضرب دراهم تقع المعاملة بها، فتقدم أمير المؤمنين بذلك، فهربت المفسدات وكبست الدور، وارتفعت الأنبذة، ووعد بقلع المواخير ومكاتبة عضد الدولة برفعها»[1].

---

[1] المرجع السابق.

ولم يسلم من حسبة الحنابلة ابن عقيل وهو من كبرائهم، لما علموا بسماعه من ابن التبـــان المعتزلي، فأهدروا دمه، وهذا سنتناوله بعد ذلك.

وهذا يدلل على الاهتمام الديني الذي كان في هذا العصر، خاصة في بغداد حيث كانـــت المناظرات والأفكار المختلفة بين الشافعية والحنابلة، فضلاً عن تواجد الرافضة الذين قضـــى عليهم السلطان فيما بعد، وبغض النظر عن فتنة الحنابلة أو اغتيال نظام الملك، وهـــو مـــا أوجد مساحة للعمل الثقافي، وهو ما سنتكلم عنه فيما يلي.

المبحث الثالث: الحالة الثقافية

راجت سوق العلم، وازدهرت على عكس ما المتوقع مع سوء الأحوال السياسية والدينية؛ فقد شهد النصف الثاني من القرن الخامس انتشارًا للمذهب الشافعي، ورواجًا لم ينله غيره من المذاهب، والسبب في ذلك أن الغالبية العظمى من فقهاء إقليم العراق،من أتباع المذهب الشافعي، وحينما حكم البويهيون العراق حاولوا القضاء على الخلافة العباسية؛ لإحساسهم بأن للخلفاء بني العباس نفوذًا دينيًا لدى الناس، وقد اتبع البويهيون سياسة قائمة على تأييد الفكر الشيعي، وذلك من أجل الحصول على تأييد أصحاب هذا المذهب حتى يستعينوا بهم على تحقيق هدفهم؛ فأدى هذا إلى انتشار الفكر الشيعي، ونشاط الحركة الإسماعيلية.

فلما حكم السلاجقة سنة ٤٤٧هـ، أحسوا خطر ذلك على الخلافة العباسية، وعلى مستقبل دولتهم السنية؛ ومن ثم فقد انتهجوا سياسة قائمة على نشر المذهب الشافعي، لا سيما بعد استوزار نظام الملك الذي كان شافعي المذهب، ولا يخفى ما فعله نظام الملك (ت ٤٨٥هـ)[1]؛ فقد شيد هذا الوزير العالم شبكة من المدارس انتشرت في القرى والكفور والمدن، وأخذت اسمها من اسمه فسميت "النظامية"، وتعد أنموذجًا لمدارس المسلمين في العصور الوسطى، فضلا عن عدم انتسابها لسلاطين السلاجقة.

وكان من شروط القبول في هذه المدارس أن يكون الطالب شافعيًا أصلا وفرعًا، وقد خرّجت هذه المدارس أعدادًا كثيرة من الفقهاء من أصحاب المذهب الشافعي، فازدهر المذهب في العراق بصورة تفوق غيره من المذاهب، وهذا يؤكد تأثير الدعم السياسي على رواج فكر بعينه، أو مذهب خاص. وبعبارة أخرى: كانت نشأة هذه المدارس في الحقيقة مرتبطة بالدعوة المضادة للدعوة الشيعية، ومن ثم كان انتشارها في بغداد ونيسابور وطوس وهراة وأصفهان... وغيرها من البلدان.

ومن مآثر نظام الملك وأياديه البيضاء عنايته بالعلماء، عندما أبطل سب الأشعرية من فوق المنابر[2]، وأمد المدارس بالأموال والكتب والأساتذة من خيرة علماء العصر، وكان منهم:

ـ أبو إسحاق الشيرازي (ت ٤٧٦ هـ)[3].

---

[1] انظر الكامل ٨/ ٤٧٩ ـ ٤٨١.

[2] انظر: تاريخ التربية الإسلامية د. أحمد شلبي، ط دار الكشاف١٩٥٤، ١٩٤ ـ ٤٨١.

[3] الشيخ أبو إسحاق الشيرازيّ الفيروزآباديّ. شيخ الشّافعيّة في زمانه. ولد سنة ٣٩٣. انظر تاريخ الإسلام ٣٢/١٤٥.

ـ إمام الحرمين أبو المعالي يوسف الجويني (ت ٤٧٨ هـ).

ـ أبو القاسم العلوي الدبوسي (ت ٤٨٢ هـ).

ـ أبو بكر الشاشي (ت ٤٨٥ هـ)[١].

ـ الغزالي (ت ٥٠٥ هـ)[٢]

- ابن الزاغوني (٥٢٧هـ)[٣].

وفي أروقة النظامية كان لابن عقيل مناظرات ومناقشات مع علمائها، فناظر كبار الأشاعرة كالكيا الهراسي، وتلقى عن بعضهم كالشيرازي.

وهكذا نجد تقدمًا علميًا في شتى مجالات العلوم الإسلامية في: التفسير، والحديث، والفقه، وعلم الكلام، وفي الفلسفة، والمنطق، والطب، والعلوم، والرياضة، وغيرها، بيد أن هذه المدارس بدأت في الاختفاء تدريجيًا خلال القرن السادس الهجري، وكان وراء ذلك كثرة الحروب والفتن التي اجتاحت البلاد عقب تداعي أسرة السلاجقة، ولكن نظامية بغداد ظلت في العاصمة تقاوم الأحداث حتى مطلع القرن التاسع الهجري، ثم أصابها ما أصاب غيرها من المؤسسات العلمية[٤].

ولم يكن الأمر مقصورا على المدارس سالفة الذكر في طلب العلم، بل كانت المساجد من أهم الأماكن لتلقي العلوم الدينية وغيرها؛ فالمسجد مصدر التوجيه الروحي والمادي؛ فهو مكان للعبادة، ومدرسة لتلقي العلوم والآداب، وكثرة المساجد في بغداد كانت واحدًا من العوامل التي أدت إلى ازدهار الحالة الثقافية، ويروى أن مجالس العلم في مساجد بغداد اتخذت طريقة الإملاء، وقد اتبع هذه الطريقة الكثير من المتكلمين واللغويين.

أما المكتبات فقامت بدور لا يقل شأنًا عن المساجد في انتعاش ونمو الحركة الفكرية في البلاد؛ فقد كان من الثابت وجود عدد من المكتبات الذاخرة بشتى أنواع الكتب التي تناولت مسائل متنوعة من العلوم النقلية والعقلية، بعضها في مختلف المدارس والمساجد، وأخرى في دار الخلافة، بالإضافة إلى المكتبات الخاصة لبعض الأفراد، كما كان بعض أهل

---

(١) محمد بن أحمد بن الحسين بن عمر، أبو بكر الشاشي الفعال العارفي، رئيس الشافعية بالعراق. ت ٥٠٧هـ. الأعلام ٥/٣١٧.

(٢) محمد بن محمد بن محمد الغزالي الطوسي، أبو حامد، حجة الإسلام. فيلسوف، متصوف، له نحو مئتي مصنف. مولده ووفاته في الطابران. رحل إلى بيسابور ثم إلى بغداد فالحجاز فبلاد الشام فمصر، وعاد إلى بلدته. الأعلام ٧/٦٦.

(٣) علي بن عبدالله بن نصر بن السري، أبو الحسن بن أبي الوفاء: مؤرخ، فقيه، من أعيان الحنابلة. ٤٥٥ - ٥٢٧ هـ الأعلام ٤/٣١٠.

(٤) انظر: الكامل ٨/ ٣٤٨، و تاريخ التربية الإسلامية ٩٩، ١٠٠، ٢٢٣ ـ ٢٣٩، ٤٤٣.

الخير يهبون كتبهم -لا سيما الدينية منها- للمساجد والمدارس أو يوقفونها على القراء[1]، ومن المكتبات الخاصة مكتبة الصاحب بن عباد، ولقد حاول صاحب خراسان إغراء الصاحب بن عباد ليفوض إليه وزارته وشؤون مملكته، ولكن الصاحب اعتذر عن ذلك، وكان من جملة أعذاره إليه أنه يحتاج في نقل كتبه إلى أربعمائة جمل، ولا يخفى أن هذا الخبر -وإن انطوى على مبالغة- يدل على عظم المكتبة الخاصة بالوزير البويهي الصاحب بن عباد، ولم يكن هو وحده الذي يتمتع باقتناء مكتبة خاصة عظيمة، وإنما كان هناك نفر آخرون من وجهاء القوم ممن يمتلكون مكتبات خاصة كأبي الفضل بن العميد، الذي كان أستاذًا للصاحب بن عباد[2].

كما استطاع غرس النعمة أبو الحسن محمد بن هلال الصابي (ت ٤٨٠هـ) من أن يكون مكتبة صغيرة ببغداد، وصلت محتوياتها أربعمائة مجلد، يرتادها بعض الطلاب، وحين أضحت مكتبة المدرسة النظامية أكثر جذبًا للطلاب اضطر غرس النعمة إلى بيع مكتبته المتواضعة[3].

كما تجدر الإشارة أيضًا إلى أن السلاجقة حرصوا كل الحرص على رواج اللغة الفارسية؛ بسبب اتخاذ السلاجقة في بادئ أمرهم مدنًا إيرانية عاصمة لهم، وكانت اللغة العربية قبل عهد السلاجقة هي اللغة الرسمية، وكانت هي لغة الكتابة، وكان سلاطين المسلمين يصدرون بها الفرمانات، ويوقعون بها، فلما جلس ألب أرسلان على العرش أصدر أمره بأن تكون الكتابة في الدواوين كلها بالفارسية، فقطعت اللغة الفارسية بذلك شوطًا كبيرًا في طريق الرقي والكمال[4].

---

(1) انظر تاريخ بغداد للخطيب البغدادي ١ / ١٠٨، ١٠٩.

(2) انظر: وفيات الأعيان، أحمد بن محمد بن خلكان، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، دار صادر بيروت، ١ / ٢٣٠.

(3) انظر: المنتظم في تاريخ الأمم والملوك لابن الجوزي، دار صادر بيروت ١٦ / ٢٧٥، ٢٧٦، و الهفوات النادرة لغرس النعمة، لأبي الحسن محمد بن هلال ط الأزهرية ٢٠٠٣، ص ٢١ النجوم الزاهرة ٥ / ١٢٦، و البداية والنهاية ١٢ / ١٣٤.

(4) انظر: السلاجقة في التاريخ والحضارة، ٢٥٠.

الفصل الثاني: ترجمة المصنف

المبحث الأول: حياته الشخصية

المبحث الثاني: شيوخه وتلاميذه وأقوال أهل العلم عنه

المبحث الثالث: مصنفاته وعلمه

المبحث الأول: حياته الشخصية

١ – نسبه ومولده:

هو علي بن عقيل بن محمد بن عقيل بن أحمد البغدادي الظفري، الفقيه المقرئ، الأصولي، الواعظ المتكلم، أبو الوفاء، أحد الأئمة الأعلام، وشيخُ الإسلام الإمام العلامة، البحر، شيخ الحنابلة، أبو الوفاء علي بن عقيل الظفري البغدادي[1] الحنبلي.

كان جده كاتب بهاء الدولة بن بويه.

ولد سنة إحدى وثلاثين وأربعمائة في جمادى الآخرة (٤٣١هـ). كذا نقله عنه ابن ناصر السلفي.

قال ابن الجوزي: ورأيتُه بخطّه. ومما يرجحه، نقل عنه عَلي بن مسعود بن هبة الله البوّار أنه قال: ولدت في جُمادى الأولى سنة إحدى وثلاثين، وتفقهت في سنة سبع وأربعين.

وذكر أبو محمد بن السمرقندي عنه: أنه وُلد سنة ثلاثين. والأول أصح[2].

وكان مولده ونشأته بمحلة شرق بغداد تسمى الظفرية[3].

٢ – حياته:

نشأ ابن عقيل في بيت علم وفضل؛ فتوفرت له البيئة العلمية، والتربية النقية التي هيأت له طلب العلم وقصد المعالي؛ حيث يقول: "وأما أهل بيتي فإن بيت أبي كلهم أرباب أقلام، وكتابة، وشعر، وآداب. وكان جدّي محمد بن عقيل كاتب حضرة بهاء الدولة، ووالدي أنظر الناس وأحسنهم جزلاً وعلمًا. وبيت أبي بيت الزهري صاحب الكلام والدرس على مذهب أبي حنيفة"[4].

---

(١) انظر ترجمته في سير أعلام النبلاء، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط ٣، ١٩٨٦، ١٩/٤٤٩. والمنتظم لابن الجوزي، دار صادر بيروت ط١، ٩/٢١٢، ومناقب أحمد ٧٠٠، وطبقات الحنابلة ٢/٢٥٩، والذيل ١/١٤٢، والمنهج الأحمد للعليمي ٢/٢١٥، ومعرفة القراء الكبار ١/٤٦٨، وطبقات المفسرين للداودي ١/٤١٧.

(٢) ذيل طبقات الحنابلة ١/١٤٠.

(٣) وهي منسوبة إلى ظفر أحد حجاب دار الخلافة، على الضفة اليسرى من دجلة. معجم البلدان، ياقوت بن عبد الله الحموي، دار الفكر – بيروت، ٤/٦٢.

(٤) ذيل الطبقات ١/١٤٥.

وتعد سنة (٤٤٧هـ) سنة رئيسة في حياة ابن عقيل؛ فقد بلغ فيها السادسة عشرة من عمره، وتتلمذ فيها على القاضي أبي يعلى حتى وفاته، وهو ما ساعد على اتساع آفاقه العلمية.

ومع أنه كان من أسرة كريمة غير أنه لم يكن ميسور الحال،فعانى من الفقر والنسخ بالأجرة، مع عفة وتقى، ولم يزاحم فقيهًا في حلقة، ولم تطلب نفسه رتبة من رتب أهل العلم. وتقلبت عليه الدول؛ فيقول "فما أخذتني دولة سلطان ولا عامة عما أعتقده أنه الحق، فأوديت من أصحابي حتى طلب الدم، وأوذيت في دولة النظام(نظام الملك) بالطلب والحبس، فيا من حفتُ الكل لأجله، لا تخيب ظني فيك".

وكان مثابرًا في طلب العلم، حريصًا على وقته، اتخذ لذلك عدته، فأبعد نفسه عن أصدقاء السوء، ولم تفتر عزمة الطلب عنه مع مرور الزمن؛ يقول عن ذلك:

"عصمني الله في شبابي بأنواع من العصمة، وقصر همتي على العلم، وما خالطت لعابا قط، ولا عاشرت إلا أمثالي من طلبة العلم".

ولقد مرت به مراحل رخاء وشدة، تارة يقرب من السلطان، وتارة يحمل عليه إخوانه من الحنابلة، غير أنه عاش حريصًا على طلب العلم، لم يلهه عنه شاغل، فيقول في آخر عمره: "إني لا يحل لي أن أضيع ساعة من عمري حتى إذا تعطل لساني عن مذاكرة أو مناظرة، وبصري عن مطالعة، أعملت فكري في حال راحتي وأنا منطرح، فلا أنهض إلا وقد خطر لي ما أسطره، وإني لأحد من حرصي على العلم وأنا في عشر الثمانين أشد ما كنت أجده وأنا ابن عشرين. وأنا أقصر بغاية جهدي وقت أكلي حتى أختار سفَّ الكعك وتحسيه بالماء على الخبز لأجل ما بينهما من تفاوت المضغ توفراً على مطالعة أو تسطير فائدة لم أدركها فيه، وإن أجلَّ تحصيل عند العقلاء بإجماع العلماء هو الوقت"[1].

ولقد تلقى عن علماء بغداد ونبغ في العلوم الشرعية، وكان في أول حياته معتزليًّا، أخذ عن أبي علي بن الوليد وأبي القاسم بن التبان، حتى قام عليه الحنابلة فالتجأ إلى الباب وتخفى

---

(١) لسان الميزان، أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني الشافعي- مؤسسة الأعلمي للمطبوعات - بيروت- ط٣، ١٤٠٦-١٩٨٦.تحقيق: دائرة المعرف النظامية - الهند-٤/٢٤٣.